مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١٠، العدد ٤، شتاء ١٤٣٦ هـ
صفحة ٦٢٣ - ٦٤٤

الوحدة الموضوعية في سورة الأعراف

علي رضا محمدرضايي[١*]، عيسى متقي زاده[٢]، مسعود شكري[٣]

١. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، فرديس فارابي
٢. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس
٣. طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس

(تاريخ الاستلام:١٤٣٥/١١/١٢؛ تاريخ القبول:١٤٣٦/٢/٢٢)

الملخّص

اكتناه المعاني الرفيعة للقرآن الكريم وإدراك ما يحتوي عليه هذا الكتاب العظيم، يحتاج إلى دراسة متعدّدة الجوانب،لأنّ الأسرار والرموز القرآنية قد تختفي على المخاطب العام وتحتاج إلى علوم خاصة لإنتشالها من بين المعاني الراقية والألفاظ الرائعة. ومن هذه الأسرار، سرّ الوحدة الموضوعية في السور القرآنية، خاصة السور الطوال. فإذا نظرنا إلى ظاهر السور الطوال واجهنا موضوعات وقصصاً لاتوجد علاقة وثيقة بين مضامينها في بادئ الرأي، ولكن إذا نظرنا إلى هذه السور من نظرة الوحدة الموضوعيّة يمكننا متابعة الهدف الرئيس والمغزى الواحد في الصور المتعدّدة المطروحة في السورة، وعلاقتها بالسور الأخرى وتسلسل المفاهيم في السورة الواحدة من جهة وبين السور متتابعة من جهة أخرى.

ومن هذا المنطلق، يحاول هذا المقال بناءً على المنهج الوصفي- التحليلي، دراسة الوحدة الموضوعية في سورة الأعراف بواسطة تقسيمها على أجزاء في داخل السورة، وكيفية بناء أي جزء على المحور الرئيس وعلاقة الأجزاء فيما بينها والتناغم والتناسق الموجودين فيها من حيث تنمية الموضوع، من المقدمة إلى الخاتمة. ويشاهَد بأنّه إضافة على تمحور الموضوعات حول المحور الرئيس، وهو الصراع بين الخير والشّرّ ولزوم تحديد الموقف في هذا الصراع، قد أثّر المحور الرئيس على السمة اللغوية البارزة للسورة، الوحدة الموضوعية تسبّب انسجاماً وتلاحماً في السورة بالرغم من طولها وكثرة عدد آياتها. فنستنتج أنّ سمتها البارزة هو التضاد والتقابل، ويذكرنا هذا الأمر بالصراع بين الطرفين المتخاصمين في مضمون السورة. العلاقة في أكثر الأحيان كامنة وراء الموضوعات المتعدّدة المطروحة أنّها في علاقة بسورة قبلها وما بعدها من جانب الموضوع العام.

الكلمات الرئيسية

القرآن الكريم، سورة الأعراف، الوحدة الموضوعية، الصراع، التضاد.

---

* الكاتب المسؤول
Email: amredhaei@ut.ac.ir

مقدمة

لاشك أنّ القرآن الكريم كتاب معجز فريد لا مثيل له ومتفرّد بخصائص تجعله الكتاب المعجز الذي لا يعرف القدم وتنكشف أسراره على مرّ الزمن ولاتزال هناك أسرار كثيرة لم يدركها العقل البشري القاصر. عرّف الله تعالى القرآن في أول تعبير عنه ككتاب: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢)، ولكنّه ليس كتاباً بسيطاً يمكن قياسه بالكتب الأخرى، فهو يحمل في طياته جميع الخصائص المثالية للكتب، بل يغلب عليها في الكمال؛ لأنّه أكمل وأفضل وأرقى كتاب، وبعبارة أخرى إنّه كتاب من جهة المادة ولكن ماهيته تغلب على جميع الكتب.

من خصائص كلّ كتاب قيم وعلى رأسه القرآن، أن يراعى فيه النظم من البداية إلى النهاية وأن يعطي المخاطب خيطاً فكرياً ليمسكه وينطلق وراءه حتى يوصله هذا الخيط الفكري إلى الهدف المقصود من الكتاب. فمن المفروض أن يكون لكل كتاب مقدمة وسيرٌ منطقي في الفصول والأجزاء وصولاً إلى الخاتمة التي تتناسق مع المقدمة وصلب الموضوع. ومن جهة أخرى، يجب أن يتميز كل فصل أو كل جزء من الكتاب بطرح قسم من الموضوع الرئيس وأن تتناسب جزئيات الموضوع المطروح في ضمن كل فصل حتى يكون الكتاب في ذروة النظم والتناسق.

فإذا نظرنا إلى القرآن من هذا المنظار، كيف تكون العلاقة بين أجزائها المختلفة؟ هل يمكن رصد نظم خاص بين السور المتعدّدة من بداية القرآن حتى نهايته؟ كيف يمكن أن نجد تناسباً خاصاً بين السور وهي رتّبت على أساس طولها؟ هل يمكن أن نجد سيراً فكرياً وموضوعياً خاصاً في داخل السور وخاصة السور الطوال التي قد تتجاوز عدد آيها المأتين وتشتمل على موضوعات متعدّدة؟ وإذا وجدنا الموضوع الخاص للسورة، فهل يبرز الموضوع في المفاهيم فقط أم تسانده اللغة أيضاً ويتجلّى في التعابير القرآنية؟

يحاول علم المناسبات[١] الإجابة عن هذه الأسئلة وأمثالها عن طريق دراسة العلاقات الموجودة بين سور القرآن من جهة وعلاقات الأجزاء المتعدّدة في سورة واحدة من المقدمة

---

١. مجموعة من الأصول الكلية والمسائل المتعلقة بالمعنى الذي يربط بين سور القرآن العظيم وآياته (بازمول، ٢٠٠٢، ص٢٨).

والموضوع الرئيس والخاتمة من جهة أخرى. ويُبدي علم المناسبات إهتماماً خاصاً بالسور الطوال بسبب طول نفسها واشتمالها على الموضوعات المختلفة في سياق واحد، الأمور التي تؤدي إلى صعوبة كشف المحور الرئيس للسورة؛ لأنّها تشتمل على موضوعات متعددة قد تبدو في النظرة العابرة منقطعة الصلة بعضها بالبعض. فضرورة البحث عن الصلة بين الأجزاء المختلفة للسورة جعلتنا نبحث عن الوحدة الموضوعية في هذه السورة المباركة، ولاحظنا أن التفاسير والكتب المرتبطة بالعلوم القرآنية قد تشير إلى علاقة الأجزاء مع البعض وعلاقتها مع السور المتقدمة عليها والمتأخرة عنها ولكن لم نشاهد كتاباً أو مقالة يغوص في أعماق السورة ليجد العلاقات الكامنة في الجزئيات، فعلى هذا، يبدو أنّ دراسة الوحدة الموضوعية في سورة الأعراف دراسة قيمة وجديدة.

يحاول هذا المقال أن يدرس الوحدة الموضوعية في سورة الأعراف ويكشف الستار عن محورها الرئيس وكيفية بروز هذا المحور في الأقسام المختلفة للسورة من المقدمة والأجزاء الداخلية والختام، ووجه تسميتها وعلاقة الاسم بالموضوع الرئيس وعلاقة السورة بما قبلها كما يصوّر لنا بدايات ونهايات متسلسلة تأخذ فيها كل حلقة برقاب أخرى. تشير النتائج إلى أنّ هناك موضوعاً رئيساً يجمع شمل موضوعات السورة ويوجد العلاقة بين أجزائها المختلفة كخيط رئيس، وإضافة على الوحدة الموضوعية، فهناك نوع آخر من التناسق في السورة، إذ تبرز الوجه الثاني للوحدة في الثنائيات المذكورة في التعبيرات القرآنية والتي تلعب دورا بارزاً في إعطاء السورة صبغة فنية قوية.

خلفية البحث

حاول المفسرون منذ القديم الكشف عن وجوه علاقة السور بالبعض وأبدوا بمحاولات في تفاسيرهم ومنهم الفخر الرازي في تفسيره المسمى بـ«التفسير الكبير» وابوالفضل الآلوسي البغدادي في تفسيره «روح المعاني»، كما بادر بهذا الأمر سيد قطب في كتابه «في ظلال القرآن». ولكن محاولات المفسرين كانت من خلال تفاسيرهم ولم يكن بصورة كتب مستقلة كما نشاهد في كتب مثل «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي و«علم المناسبات في السور والآيات» لبازمول و«الصورة المتماسكة للقرآن» (چهره پيوسته قرآن) لمحمد علي أيازي و«الوحدة البنائية للقرآن المجيد» لطه جابر العلواني، فهذه الكتب مختصة بدراسة أسباب ترتيب القرآن ودراسة العلاقات الموجودة بين السور وبين آيات سورة واحدة، وقد يشير المؤلّفون من

خلال دراساتهم إلى الوحدة الموضوعية في السور ومنها الأعراف، ولكن بصورة إشارات خاطفة وسريعة، كما نرى في كتاب «الوحدة البنائية للقرآن المجيد». هناك نوع آخر من الدراسات التي صبّت اهتمامها على فواتح السور بسبب أهميتها الخاصة وبوصفها أبوابا ترشدنا إلى داخل السور، مثل ما نراه عند الحسين نصّار في كتابه «فواتح سور القرآن» وأبو العظائم محمد ماضي في كتابه المسمّى بـ«فواتح السور في القرآن الكريم». والى جانب هذه الكتب، نرى كتاب «أهداف سور القرآن» لعمرو خالد وهو ركز اهتمامه على الأهداف العامة للسور دون الدخول إلى الجزئيات.

وهناك مقالتان حول سورة الأعراف أحدهما بعنوان «دراسة مفهوم الأعراف وأهلها في الأقوال التفسيرية» والآخر بعنوان «دراسة مفهوم الرؤية في الآية ١٤٣ سورة الأعراف» كتبهما مهدي اكبر نژاد ولم يتطرق الكاتب في أية من هاتين المقالتين إلى الوحدة الموضوعية. وهناك في بعض المواقع الإلكترونية إشارات إلى الوحدة الموضوعية في السور ومنها الأعراف ولكنها بصورة ملخّصة وغير مكتملة، فيبدو أنّ دراسة السورة من هذا المنظار دراسة جديدة وقيمة. خاصة عندما نتحدث عن البدايات والنهايات وحلقات السلسلة التي تأخذ بعضها برقاب البعض. وعن توظيف الحواس في السورة.

الوحدة الموضوعية

السورة بمعنى الجدار الفاصل أو الجدار الذي يبني أطراف المدينة، وبالتّالي تُطلق السورة على إطار طرحت فيه عدة مباحث حول موضوع واحد، فالسورة تنظر إلى الحقيقة من منظار خاص ويشتمل على عدة موضوعات ترتبط بهذا المنظار (أيازي، ١٣٨٠، ص٤٧). يمكن القول بأن كل سورة هي مقال مستقل يشتمل على المقدمة وهيكلية البحث والنتيجة، وبالرغم من أنّ السور قد تحتوي على موضوعات متشابهة منها قصص الأنبياء، والجنة والجحيم، والتوحيد والمعاد، إلّا أنّ لكلّ سورة محورا خاصا بها، تدور الموضوعات المطروحة فيها حول هذا المحور الرئيس ومن هنا يمكن التمييز بين السور المختلفة من جهة اشتمال كل منها على الموضوعات الخاصة بها (أيازي، ١٣٨٠، ص٤٨). فيستند جميع الموضوعات في سورة واحدة على هذا المحور الرئيس، فيعطي السورة وحدة فنية وتستجمع أطراف الحديث فيها، «فالسورة مهما تعدّدت قضاياها فهي كلام واحد، يتعلّق آخره بأوله وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلّق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة وأنّه لاغنى

لمتفهّم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لاغنى عن ذلك في أجزاء القضية وهذا ما يسمّى بـ"الوحدة الموضوعية" في السورة» (بازمول، ٢٠٠٢، ص٤١).

يقترح السيوطي منهجاً لمعرفة الوحدة الموضوعية في سور القرآن وعلاقة الآيات ببعضها ويقول: الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الإستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا عقلته تبيّن لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة (السيوطي، ١٩٨٧، ص٢٣٩).

المنهج الذي اقترحه السيوطي منهج قيم ونافع ولكننا نحاول أن نكمّل هذا المنهج بواسطة التدقيق في العتبات الأخرى للسورة والتي بإمكانها أن تعطينا معلومات أكثر بالنسبة للموضوع الرئيس. فمن هذا المنطلق، في البداية نُلقي نظرة خارجية على السورة، فنعرّفها على أساس محل نزولها والظروف التي نزلت فيها ووجه تسميتها وعلاقتها بالسور ماقبلها في المصحف الشريف، ثمّ ندرسها في نطاقها الداخلي بما فيه المحور الرئيس والمقدمة التي تمهّد الأرضية لطرح الموضوع، وتسلسل الأفكار في نص الآية وصولاً إلى الختام وكيفية ختم السورة وحسن ختامها.

سورة الأعراف

«سورة الأعراف سورة مكية وعدد آياتها (٢٠٦) وهي أطول سور القرآن الكريم بعد البقرة وأطول السور المكية على الإطلاق. وهي السورة السابعة في ترتيب المصحف والتاسعة والثلاثين في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الصاد وقبل سورة الجنّ، ووجه تسميتها أنّها ذكر فيها لفظ «الأعراف» بقوله تعالى ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ (الأعراف: ٤٦) ولم يذكر في غيرها من سور القرآن بهذا اللفظ ولكنّه ذكر بلفظ «سور» في الآية ١٣ في سورة الحديد. وتسمّى "أطول الطوليين" كما تسمّى بأسماء الحروف المقطعة التي في أولها (المص) وتسمّى "الميقات" و"الميثاق" أيضاً» (ابن عاشور، ٢٠٠٠، صص٥-٧). سورة الأعراف كالسور المكية الأخرى تتحدث عن أصول الدعوة الإسلامية من التوحيد والبعث والجزاء والوحي والرسالة.

علاقة السورة بما قبلها

إدراك العلاقة بين السور يعطينا خيطاً فكرياً منسجماً نستطيع باستمداد منها إدراك التناغم والإنسجام الموجودين بين السور المختلفة كفصول لهذا الكتاب العظيم، و«أول من فطن إلى العلاقة بين فاتحة السورة وخاتمة السورة التي قبلها كان الأخفش» (نصار، ٢٠٠٢، ص٢٠٨)، والمناسبة بين سورة والأخرى لا ينحصر في الآيات الختامية لسورة مع الآيات الأبتدائية للسورة التالية، بل تدرس علاقة السياق والنظام الحاكمين بين السورتين ومناسبة الموضوعات المطروحة بينهما أحياناً. فعلى هذا، يمكن القول بأنّ علاقة سورة الأعراف بما قبلها سيكون على نوعين: الأوّل علاقة بداية سورة الأعراف بنهاية سورة الأنعام، والثاني العلاقة العامة في الموضوعات المطروحة في سورتي الأنعام والأعراف.

من أبرز الّذين تطرّق إلى علاقة بداية سورة الأعراف بنهاية سورة الأنعام السيوطي، حيث يقول: «إنّه قد تقدّم هناك ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ**﴾ (الأنعام: ١٥٥) فافتتح هذه السورة بالأمر باتّباع الكتاب في قوله ﴿**كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ (الأعراف: ٢-٣). وأيضاً لمّا تقدّم في الأنعام ﴿**ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كانُوا يفْعَلُونَ**﴾ (الأنعام: ١٥٩) و﴿**ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾(الأنعام ١٦٤) قال في مفتتح هذه السورة ﴿**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۞ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ**﴾ (الأعراف: ٦-٧) وذلك شرح التنبئة المذكورة. وأيضا فلمّا قال في الأنعام: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ (الأنعام: ١٦٠) وذلك لايظهر إلّا في الميزان، افتتح هذه السورة بذكر الوزن فقال: ﴿**الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ**﴾ (الأعراف: ٨) ثم ذكر من ثقلت موازينه وهو من زادت حسناته على سيئاته، ثم ذكر من خفّت موازينه وهو من زادت سيئاته على حسناته، ثمّ ذكر بعد ذلك أصحاب الأعراف وهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم» (السيوطي، ٢٠٠٢، ص٨٧). وكرّر الآلوسي قول السيوطي في تفسيره المسمى بروح البيان، حول علاقة سورة الأعراف بما قبلها (الآلوسي، ١٩٨٥، ج٨، ص٧٤).

أما عن علاقة سورة الأعراف العامة بسورة الأنعام، فيعتقد السيوطي أنّ هناك مضامين مجملة في الأنعام جاء تفصيلها في الأعراف وكانّ سورة الأعراف بيان يزيل الإبهامات التي جاءت في سورة الأنعام، فيقول: «مناسبة وضع هذه السورة (أي الأعراف) عقب سورة الأنعام، أنّ سورة الأنعام ممّا كانت لبيان الخلق وقال فيها: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ**﴾

(الأنعام: ٢) وقال في بيان القرون: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبلِكُم مِّن قَرنٍ﴾ (الأنعام: ٦) وأشير فيها إلى ذكر المرسلين وتعداد كثير منهم، وكانت الأمور الثلاثة على وجه الإجمال، هذه السورة تشتمل على شرح الأمور الثلاثة وتفصيلها. فبسط فيها قصة خلق آدم وذلك تفصيل قوله ﴿خَلَقَكُمْ مِن طِينٍ﴾ ثمّ فصلت قصص المرسلين وأممهم وكيفية اهلاكهم تفصيلاً تاماً شافياً مستوعباً وذلك بسط حال القرون المهلكة ورسلهم، فكانت هذه السورة شرحاً لتلك الآيات الثلاث. وأيضاً في هذه السورة تفصيل لقوله ﴿هُوَ الَذِي جَعَلَكُم خَلائِفَ الْأَرْضِ﴾ (الأنعام: ٦) ولهذا صدَّر هذه السورة بخلق آدم الذي جعله الله في الأرض خليفة كما أشار إلى هذا الموضوع في قصة عاد وثمود. وأيضاً فقد قال في الأنعام ﴿كَتَبَ رَبُّكُم عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ٥٤) وهو موجز وبسطه هنا ﴿رَحمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ... ۞ أولئِك هُمُ المُفلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٦-١٥٧)» (السيوطي، ٢٠٠٢، ص٨٨).

وإن أمعنّا النظر في المحاور الرئيسة للسور الستّ قبل الأعراف، نشاهد بأنّ هناك تسلسلا منطقيا بين السور، يبدأ من سورة الفاتحة كمقدمة ملخصة شاملة ترسم الخطوط العريضة للمنهج الإلهي وتتعاقبها السور الأخرى بأهدافها الرئيسة على هذا المنوال:

- أنتم مسؤولون عن هذه الأرض أيها المسلمون، وهذا هو منهجكم (البقرة)
- أهمية الثبات على هذا المنهج (آل عمران)
- العدل شرط أساسي لضمان الاستخلاف (النساء)
- أهمية الوفاء بالمنهج والعقود التي قطعتموها لتطبيقه (المائدة)
- توحيد الله تعالى في الاعتقاد والتطبيق أمران لازمان للمنهج (الأنعام)

فيجب الإهتمام بالمحور الرئيس لسورة الأعراف حتى يتبين هل يناسب المحور مع التسلسل المذكور أم لا.

المحور الرئيس

المحور الرئيس للسورة هو الصراع بين قوى الخير والشر. الهدف الذي تدور حوله أحداث السورة ومعانيها، هو ضرورة تحديد الموقف وسط الصراع، فنرى أنّ هذا المحور يتناسب مع المحاور الأخرى؛ لأنّ الله تعالى بعدما يرسم المنهج السوي والطريق المستقيم بشكل ملخص في سورة الفاتحة، يفصّله في سورة البقرة ويحمّل الإنسان مسؤولية اعتناق هذا المنهج، ثمّ يوكد

على أهميته في سورة آل عمران ويشرح خصائصه ومعالمه في سُور النساء والمائدة والأنعام، وفي سورة الأعراف يؤكد على لزوم اتخاذ هذا المنهج في الصراع الدائم بين الحق والباطل، وهذا الصراع سنة كونية دائمة ما بقيت الدنيا.

قيل إنّ المحور الرئيس لهذه السورة هو الصراع بين الخير والشر ولزوم اتخاذ الموقف في هذا الصراع وهذا المحور لمناسب جداً لجوّ الصحابة في المرحلة المكية كما أنه ينعكس على الناس جميعاً في كل زمان ومكان، ففي كل عصر سيعيش الناس مواقف صراع بين الحق والباطل على مستوى الدول والأمم وعلى مستوى الحياة الشخصية أي بين الإنسان ونفسه. وهنا يبرز قيمة الإسلام، لأنّ «الإسلام ليس حدثاً تاريخياً وقع مرة ثمّ مضى التاريخ وخلّفه وارءه، إنّ الإسلام مواجهة دائمة لهذه البشرية إلى يوم القيامة، وهو يواجهها كما واجهها أول مرة. إنّ البشرية تنتكس بين فترة وأخرى وترجع إلى جاهليتها وعندئذ يتقدّم الإسلام مرة أخرى ليؤدّي دوره في انتشالها من الرجعية والأخذ بيدها في طريق التقدّم والحضارة» (قطب، ١٩٨٠، ص١٢٥٥).

أقسام السورة

بعدما تبيّن المحور الرئيس للسورة وقيمته، نحاول تقفّيه في الأقسام المختلفة للسورة لنرى كيف أصبح هذا الموضوع العمود الفقري للسورة الذي تستند عليه الموضوعات العديدة المطروحة فيها. ولأجل الوصول إلى هذا الهدف نقسّم السورة على أساس الموضوعات الجزئية على مقدمة وأربعة أجزاء وخاتمة، كما يلي:

المقدمة (١-١٠)، الجزء الأول: قصة آدم (١١-٢٥)، الجزء الثاني: الناس في الآخرة (٢٥-٥٨)، الجزء الثالث: قصص الأنبياء (٥٩-١٠٢)، الجزء الرابع: قصة موسى وبني إسرائيل (١٠٣-١٧١) والخاتمة (١٧٢-٢٠٦).

مقدمة السورة (١-١٠)

تبدأ السورة بالحروف المقطعة (المص) وهناك آراء كثيرة حول هذه الحروف ودلالتها وعلاقتها بالسور المبدوئة بها.

يعتقد البعض أن معنى "المص"، "أن الله أفصل" أو "أنا الله أعلم وأفصل"، كما يعتقد البعض أنّ معناها ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ بدليل قوله بعدها: ﴿**فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ**﴾ (الأعراف: ٢)

(نصار، ٢٠٠٢، صص١٣٤-١٣٥). يبدي العلّامة الطباطبائي رأياً جديداً، إضافة على ما قاله السابقون في كون هذه الحروف رمزاً بين الله سبحانه والنبي ﷺ أو إشارات إلى أسماء الله تعالى حيث يقول: «إن تدبّرت بعض التدبّر في هذه السور التي تشترك في الحروف المفتتحة بها مثل الميمات والراآت والطواسين والحواميم، وجدت في السور المشتركة في الحروف من تشابه المضامين وتناسب السياقات ما ليس بينها وبين غيرها من السور. ويمكن أن يحدس من ذلك أنّ بين هذه الحروف المقطعة وبين مضامين السور المفتتحة بها ارتباطاً خاصاً ويؤيد ذلك ما نجد أن سورة الأعراف المصدّرة بـ «المص»، في مضمونها جامعة بين مضامين الميمات و"ص"». (الطباطبائي، ١٣٧٢، ج١٨، صص٧-٨) أمّا الدكتورة عائشة عبدالرحمن فلها رأي خاص بشأن الحروف المقطعة، فهي أعلنت في استقراء كامل لجميع السور المفتتحة بهذه الحروف: «١. إنّها بدأت من أوائل الوحي لافتة إلى سرّ الحرف، فعرضت قضية التحدّي وظلت الآيات تعاجزهم وتتحداهم أن يأتوا بمثله أو بسورة منه. ٢. أكثر السور المبدوئة بالحروف نزلت في المرحلة التي بلغ عتوّ المشركين أقصى المدى وأفحشوا في حمل الوحي على الإفتراء والسحر والشعر والكهانة، فواجههم القرآن بالتحدّي» (بنت الشاطئ، ١٩٨٤، صص١٧٩-١٨٠).

أما حول الآيات الأخرى للمقدّمة، فيعتقد الدكتور البستاني بأن «الأفكار المطروحة في المقدّمة تتمثل في عمليتين: إحداهما تتصل بشخصية المبلّغ وهي الإلتزام بعملية التبليغ دون أي إحراج، ليكون نموذجاً للمؤمن يفيد منه في سلوكه العبادي، والأخرى تتّصل بشخصية المبلَغين، حيث طالبهم النصّ بأن يلزموا بمبادئ الله وحذّرهم من أن يتّخذوا دونه ولياً» (البستاني، ١٣٨٠، ج٢، ص٧). مشجّعاً إيّاهم إلى اتّخاذ الموقف وامتثال أوامر الله، بأسلوب الخطاب المباشر الذي ينطوي تحت القيمة الجمالية وبعدها التأثيري على المتلقي والمرسل إليه في قوله تعالى: ﴿**اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾ (الأعراف: ٣) إذ جاء الله عزّ وجلّ في بداية الطريق قدصوّب السهم الى غرض الارشاد بلفظ ﴿**اتَّبِعُواْ**﴾ ثم يعقبه بغرض التقرير في الآية الرابعة: ﴿**وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ**﴾ والخامسة ﴿**فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ حتى يكون الحضّ والتشجيع والارشاد الى الطريقة المثلى أكثر نفاذا وأشدّ تأثيراً. كما نرى نفس الغرض في ﴿**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ... وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ...**﴾ ومن جهة أخرى يمكن أن نعتبر هاتين الآيتين مقدمة مجملة أشارت إلى الخطوط العريضة لما ورد في قصص الأنبياء والمرسلين من كيفية تعامل الناس بين المنكر والمؤمن.

الجزء الأول: قصة آدم (١١-٢٥)

لقصة آدم عليه السلام بَطَلان: الشيطان وآدم عليه السلام، الشيطان أصبح مطروداً ومدحوراً بسبب انحرافه عن الصراط المستقيم وعدم امتثال واتّباع أمر الله تعالى وتكبّره والتمرّد من السجدة أمام آدم عليه السلام، كما هبط آدم عليه السلام إلى الأرض بسبب عدم اتباع امر الله واتّباع دون الله أي الشيطان - وهذا الموضوع يرتبط بما أمر به الله تعالى في المقدّمة من لزوم اتّباع امر الله وعدم الإتّباع من دونه - ويبدو أنّ هناك قيمة خاصة للسجدة وهي علامة خاصة للقطعية وحسم الموقف بالنسبة إلى الأمور الإلهية، وبناء على هذا، نشاهد أنّ الشيطان طُرد وهبط من مقامه بسبب عدم السجدة أمام آدم عليه السلام.

فضلا عن الموضوع الرئيس في قصة آدم عليه السلام وهو نزوعه نحو الشيطان في الصراع بين امتثال امر الله تعالى ووساوس الشيطان، هناك نكتة طريفة في استعمال المفردات في هذه القصة ترتبط بموضوع السورة، «إذ قال الله تعالى ﴿**فَدَلّاهُما بِغُرُورٍ**﴾ (الأعراف: ٢٢) في وصف اغراء الشيطان لآدم ليبين لنا أنّ الذين لايحسمون أمورهم ومواقفهم كأنهم معلّقين في البئر لا هم هالكون ولا هم ناجون، ممّا يؤكد على أنّه علينا أن نحدّد موقفنا من الصراع بين الحقّ والباطل» (خالد، دون تا، ص٣٤).

ومن العلاقات النّصيّة لقصة آدم عليه السلام بالمقدّمة، «أنّ الله تعالى قال في المقدّمة عن الآدميين بأنّهم ﴿**قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**﴾ وفي هذا المقطع يقول إبليس: ﴿**وَلَا تَجِدُ أَكْثَرُهُمْ شَاكِرِينَ**﴾، والتقط هذا القول من إبليس لكي يجانس مع مقدّمة السورة، إذاً هناك تجانس وتلاحم عضوي تتواشج من خلاله موضوعات السورة» (البستاني، ١٣٨٠، ج٢، ص١١).

كما نرى جدلية بين الربّ كالولي المطلق ومن دونه من الأولياء، وبين الله المهلك للقرى المتمثل في ضمير "نا" وأهل القرى الذين كانوا قائلين ظالمين، وبين الله والمرسل اليهم والمرسلين، وبين الله وإبليس، وبين الملائكة وإبليس، وبين الإبليس وآدم وأبناءه، وبين الله وآدم وزوجته، كما نرى تقابلاً في الأفعال والصفات: ﴿**اتبعوا**﴾=﴿**لا تتبعوا**﴾، ﴿**ثقلت**﴾=﴿**خفّت**﴾، ﴿**المفلحون**﴾=﴿**الخاسرون**﴾، ﴿**فسجدوا**﴾=﴿**لم يكن من الساجدين**﴾، ﴿**خلقتني من نار**﴾=﴿**خلقته من طين**﴾، ﴿**جاء**﴾=﴿**آتيَ**﴾، ﴿**اخرج**﴾=﴿**اسكن**﴾، ﴿**تحيون**﴾=﴿**تموتن**﴾.

كما نرى تغيراً في مسار استخدام الضمير من التكلم إلى الغيبة ثم إلى التكلم؛ إذ

الضمير من تلك الألفاظ يمتلك طاقة تعبيرية كامنة، فعندما يرتبط بالأخرى يكشف الستار عن طاقته الترميزية الفاعلة. الضمير إناء يستوعب المعنى وباقي مكوّناته الأخرى، حين يدخل الضمير في بناء النص يكتسب موقعه من حركته وسياقه الذي يفرضه النص . تساهم اللفظة في خلق تنوع المعنى وحركيته في النص خاصة عندما تتراوح بين المتكلم والغائب ثم الى التكلم. والملاحظ أن السمات والملامح لضمير المتكلّم "أنا" و"نا" مازالت محتفظة بجلاله وعنفوانه وزهوه واستعلائه على الغير في السياق القرآني بمثل ما نلاحظ في الآيات الشريفة: ﴿**أهلكنا**﴾، ﴿**بأسنا**﴾، ﴿**مكنّاكم**﴾، ﴿**جعلنا**﴾، ﴿**خلقناكم**﴾، ....

الجزء الثاني: الناس في الآخرة (٢٥-٥٨)

هذا الجزء من السورة يتحدّث عن موضوعات عدة، منها تذكير الإنسان من عدم اتّباع الشيطان وعاقبة الإنسان وتذكير نعمات الله ولكن القسط الأكبر منه يشتمل على أحوال الإنسان المختلفة في الآخرة فنطلق عليها عنوان قصص الآخرة. ينقسم هذا الجزء على أجزاء أخرى تدلّ على بدايات تنتهي الى نهايات في سلسلة دلالية تاخذ كل حلقة فيها برقاب أخرى: تبدأ السلسلة بتوبيخ إبليس بأسلوب الاستفهام قائلاً: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسجُدَ إذ أمَرتُك**﴾ (١٢) فيشير الله إلى تجرّؤ إبليس بذكر فضله على آدم قائلاً: ﴿**أَنَا خَيرٌ مِنهُ**﴾ (١٢) وبذكر تكبّره ﴿**فَمَا يَكُونُ لك أن تَتَكَبَّرَ**﴾ (١٣) وذكر عاقبة التكبّر وهي إخراجه مما كان فيه: ﴿**فَاهْبِطْ**﴾ (١٣)، ﴿**فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾ (١٣)، ثم يرجع إبليس ويأتي بطلب جديد وهو الاستمهال ﴿**قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ (١٤) لكنه سرعان ما ينسى ما منّ الله به عليه من الإمهال ﴿**قَالَ إنّك مِن المنظرين**﴾ (١٥) فقام بالتهديد﴿**لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمِ**﴾ (١٦) فبشّر الله آدم: ﴿**يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوجُكَ الْجَنَّةَ و...**﴾ (١٩) لكنهما سرعان ما نسيا ما منّ الله به من رغد العيش فامتثلا وساوس الشيطان ولكن لم يكن لهما الا اتباع الشيطان والخجل عند ربّهما بدلالة ﴿**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا...**﴾ (٢٣) فأصبحا محرومين من النعم؛ إذ ﴿**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌ...**﴾ (٢٤).

تحذير الإنسان وإرشاده (٢٥-٣٤)

يحذّر الله تعالى في هذه الآيات الإنسانَ من تبعية الشيطان ويذكر قصة آدم عليه السلام أنّه كيف خدعه الشيطان، ويرشد الإنسان نحو السبيل السوي، كما أشار إلى هذين الموضوعين

في المقدّمة بصورة مجملة في دعوة الإنسان إلى اتّباع الله وعدم اتّباع دون الله. ومن العلاقات الأخرى بين هذا القسم والمقدّمة أنه «طُرحت في المقدّمة مقولة ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ وها هو النصّ الآن يربط بين هذه المقولة وبين مقولة جديدة هي ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، ولا ننسى قول الشيطان ﴿لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾، فكلّ هذه المقولات المتشابكة والمتجانسة، توحي بأنّ التجربة البشرية التي ستواجه البيئة الجديدة سوف تكتسب عند غالبية الناس سمة السلب» (البستاني، ١٣٨٠، ج٢، صص١٣-١٤).

عاقبة المكذبين والمؤمنين (٤٥-٣٥)

يوضّح الله تعالى في هذا الجزء مصير المكذّبين والمؤمنين قبال دعوة الأنبياء إلى اتّباع الصراط المستقيم، فيطرح مرة أخرى الصراع الدائر بين الحق والباطل ويشير إلى مصير كل من الفريقين الهدى والضلالة، وبما أن الله تعالى قد خاطب الإنسان في المقدمة بأنكم ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ و﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وكما سنرى في قصص الأنبياء أن أغلبية الناس كانوا على سبيل الضلالة وكانوا يكذبون النبيين، قد تطرّق إلى عاقبة المكذّبين وأهل الجحيم أكثر من المؤمنين وأهل الجنّة، ليكون التحذير أقوى وأنفذ في النفوس.

ذكر حال الأعراف (٤٩-٤٦)

«أتى ذكر أهل الأعراف لأول مرة في هذه السورة وقيل أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم» (ابن عاشور، ٢٠٠٠، ص١٠٩)، فهم لم يحسموا مواقفهم وأعمالهم في الحياة، فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار، فهم يوم القيامة يحبسون في مكان عالٍ يسمّى بالأعراف بين الجنة والنار، ليشرفوا على المكانين. «فجعل الأعراف مكاناً يوقف به من جعله الله من أهل الجنة قبل دخوله إياها وذلك ضرب من العقاب خفيف، فجعل الداخلين إلى الجنة متفاوتين في السبق» (ابن عاشور، ٢٠٠٠، ص١٠٩).

أما العلامة الطباطبائي فيرفض هذا القول ويعتقد بأنّه لاريب أنّ ذلك منزلة رفيعة يختصون بها من بين الناس، وليست مشاهدة جميع الناس يوم القيامة وخاصة بعد دخول الجنة والنار أمراً عاماً موجوداً عند الجميع. وبعد أن يدرس الجوانب المتعدّدة في مقدرات أهل الأعراف يقول: «هذه الخصوصيات التي تنكشف واحدة بعد واحدة من هذه الآيات، لا تُبقي ريباً للمتدبّر في أنّ هؤلاء الذين أخبر الله سبحانه عنهم في قوله ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ جمع

من عباد الله المخلصين من غير الملائكة، هم أرفع مقاماً وأعلى منزلة من سائر أهل الجمع، يعرفون عامة الفريقين، لهم أن يتكلموا بالحق يوم القيامة ولهم أن يشهدوا، ولهم أن يشفعوا ولهم أن يأمروا ويقضوا» (الطباطبائي، ١٣٧٢، ج٨، صص١٢٥-١٢٦). يبدو أنّ رأي العلامة، باستدلالاته القوية المستخرجة من النص القرآني، أقرب إلى الصواب. فإذا نعتبره الأصح في معنى الأعراف، يمكن القول بأنّ الله تعالى قد عرّف نموذجاً حقيقياً للذين امتثلوا أوامر الله في الصراع الكوني الدائم وبلغوا إلى المنازل الرفيعة. وبما أنّهم أعلى درجة من الناس ودون الملائكة، سمّيت السورة باسم موقفهم في القيامة وهو من نوع المجاز بالعلاقة المحلية.

وإذا نعتبر كلام الآخرين في هذا الصدد وهو كونهم من الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم، نستطيع القول بأن هذه التسمية لها علاقة وطيدة بمقدمة السورة حيث تتحدّث عن الميزان والدقة في الحساب، لأنّ التساوي في وجود الخير والشر فيهم، قد أدّى إلى تمايزهم من أهل الجنة وأهل الجحيم. ومن جهة أخرى يمكن إعتبار الأعراف من الألفاظ التي تلمح إلى معنى الصراع الذي هو من المدلولات الأكثر تكراراً في السورة. وللفظ الأعراف في هذه الحالة دلالة مثل دلالة لفظ «الوسيط»، فحينما يسمع الإنسان لفظ الوسيط، يتبادر إلى ذهنه طرفين متباعدين أو متخاصمين، فكذلك لفظ الأعراف يبادر إلى الذهن طرفين الخاسر والفائز، أهل الجنة وأهل الجحيم، فيشير بصورة غير مباشرة إلى الصراع القائم بين الحق والباطل.

ذكر حال أصحاب النار وتذكير بنعمات الله (٥٨-٥٠)

يذكر الله تعالى مصير الجانب الخاسر في الصراع الكوني الدائم مرة أخرى، تأكيداً على لزوم الإجتناب من إتّخاذ موقفهم في ثلاث آيات، ثمّ يربط هذا القسم بالمقدّمة حيث يقول: ﴿**لعلّكم تذّكرون**﴾ و﴿**لقوم يشكرون**﴾. ويذكر الله تعالى الناسَ ببعض نعماته ويشجّعهم على اتّخاذ الطريق الصحيح في حياتهم.

الجزء الثالث: قصص الأنبياء (٥٩-١٠٣)

يشتمل هذا القسم على قصص موجزة من خمسة أنبياء: نوح (٥٩-٦٤)، وهود (٦٥-٧٢)، وصالح (٧٣-٧٨)، ولوط (٨٠-٨٤) وشعيب (٨٥-٩٣)، وتذييل لهذه القصص وتوضيح للظروف التي نزلت فيها العذاب على المكذّبين (٩٤-١٠٣).

«القصص في القرآن لاتتبع دائماً الخط التاريخي ولكنّه في هذه السورة تتبع هذا الخط. ذلك أنّه يعرض سير الركب البشري منذ النشأة الأولى ويعرض موكب الإيمان وهو يحاول

هداية الركب واستنقاذه» (قطب، ١٩٨٠، ص١٣٠٤). ففي هذه القصص علاوة على التسلسل الزمني التاريخي، نرى تناسقاً تاماً من حيث وحدة الموضوع وهو ترسيم «كيفية محاولة الرهط الكريم للنبيين لإنقاذ الركب البشري من الهاوية التي يقوده إليها الشياطين وأعوانه من شياطين الإنس المستكبرين عن الحق في كل زمان. كما نشهد الصراع بين الهدي والضلال وبين الحق والباطل وبين الرسل الكرام وشياطين الجن والإنس، ثمّ نشهد صراع المكذبين في نهاية كل مرحلة ونجاة المومنين بعد الإنذار والتذكير» (قطب، ١٩٨٠، ص١٣٠٤). ويبرز هذا الصراع في توافق اللغة المبلّغة لرسالة الله ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ والرفض من جانب الأقوام وردّ الأنبياء على أقوالهم وإبادة المكذّبين من الأقوام (البستاني، ١٣٨٠، ج٢، ص٣٦). فنشأ عن خضوع القصص لهذا الغرض أن يعرض شريط الأنبياء والرسل الداعين إلى الإيمان بدين واحد والإنسانية المكذّبة لهذا الدين الواحد مرات متعدّدة، وعرض هذا الشريط يخيل للمتأمّل أنه نبي واحد وأنّها إنسانية واحدة، فكلّ نبي يمرّ ويقول الكلمة الهادية على مرّ العصور فتكذّبه الإنسانية الضالّة وتستمرّ هذه القصة (قطب، ٢٠٠٢، ص١٧١).

«وهناك نكتة ظريفة في ذكر قصص الأنبياء، وهي أنّ قصة لوط لاتشارك في القصص الأخرى من حيث اللغة والدلالة إلّا في جانب محدود، ولعلّ لتفرّد السلوك الذي عرضه النص عن المجتمع المذكور صلة باستقلال هذه القصة نسبياً عن سائر القصص، بدليل أنّ النص نفسه أشار إلى شذوذ السلوك بقوله ﴿**مَا سَبَقَكُم بِهَا مِن أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ**﴾ بينما كان الشذوذ الفكري لدى كل المجتمعات التي عرضتها القصص متماثلاً وهو التكذيب برسالات السماء. ولكن مع ذلك، ثمة تجانس فني بين هذه القصة وماسبقها من حيث الإستجابة السلبية التي صدرت عن المجتمع المنحرف المذكور، ومن حيث الجزاء الذي رتّبه الله على ذلك وهو نجاة لوط وأهله وإبادة الآخرين» (البستاني، ١٣٨٠، ج٢، صص٤٠-٤١).

وخلاصة القول أنّ الله تعالى قد رسم شريط الصراع الدائم بين قوى الخير والشر في هذا الجزء من السورة من خلال قصص الأنبياء وقد أكّد على لزوم تبعية الطريق الصحيح وطريق الحق بواسطة ذكر عاقبة كلّ من المومنين والمكذّبين، ولهذا المقصود صلة واضحة وقوية بالمحور الرئيس للسورة، كما يمكن القول بأنّ «لذكر قصص الأنبياء وعاقبة المكذّبين، اتصالا بقوله في أوائل السورة: ﴿**وَكَمْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا**﴾ (ابن عاشور، ٢٠٠٠، ص١٤٤). وهناك تذييل عقب هذه القصص يؤكد على أنّ الله تعالى لم يعذّب المكذبين فور تكذيبهم، فأمهلهم وفتح طرق التوبة والرجوع إلى الصواب، وهذا يؤكد على رحمة الخالق للمخلوق.

قصة موسى وبني إسرائيل (١٠٣-١٧١)

وتستغرق قصة موسى في سورة الأعراف أكبر مساحة استغرقتها في سورة قرآنية (قطب، ١٩٨٠، ص١٢٥١). كما أنّها أكبر أقسام السورة حسب الترتيب الذي اعتبرناه لها. «وسبب تخصيصها بالتفصيل من بين سائر القصص، أنّها تحتوي على الحوادث العظيمة والأنباء القيمة؛ ولأنّ رسالة موسى أعظم شريعة بين يدي شريعة الإسلام وأرسل رسولها هادياً وشارعاً تمهيداً لشريعة تأتي لأمّة أعظم منها تكون بعدها، ولأنّ حال المرسل إليهم أشبه بحال من أرسل إليهم محمد ﷺ، فإنّهم كانوا فريقين كثيرين اتّبع أحدهم موسى وكفر به الآخر، كما اتّبع محمداً ﷺ جمع غفير وكفر به فريق كثير» (ابن عاشور، ٢٠٠٠، ص٢٢١).

والعلاقة الوطيدة بين قصة بني إسرائيل والمحور الرئيس للسورة، تظهر في كونهم نموذجاً للتردّد وعدم حسم الموقف في حياتهم، فعندما قال لهم نبيّهم ﴿**اسْتَعِينُواْ بِاللهِ وَٱصْبِرُواْ إِنَّ ٱلارْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (١٢٨)، كان جوابهم ﴿**أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا**﴾ (١٢٩) فردّ عليهم موسى ليعلمهم حسن الظنّ بالله والذي هو أمر أساسي من متطلبات الحسم: ﴿**قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ (١٢٩). فالآيتان (١٢٨ و ١٢٩) تؤكّدان على أنّ الحزم وعدم التردد أمران أساسيان في امتحان الاستخلاف على الأرض، وهذا ما لم يفهمه بنو إسرائيل.

ويظهر في مواقف أخرى من قصة بني اسرائيل بأنّهم كانوا يعيشون بلا غاية ولا هدى حتى في العقيدة. فبعدما جاوزهم الله البحرَ وأنجاهم من فرعون وجنوده، طلبوا من موسى: ﴿**اجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ**﴾ (١٣٨) هذا السؤال الذي ينمّ عن قمة الجهل قد ذُكر في نفس الآية التي تحكي قصة نجاتهم ليُرينا الله تعالى حالة التردد وعدم الثبات عندهم.

وكان أغلب أوامر الله لبني إسرائيل تحثّ على تطبيق أمر الله ودينه بقوة. ففي الآية: ﴿**فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا**﴾ (١٤٥) و﴿**خُذُواْ مَا ءاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ**﴾ (١٧١) تدعوهم الى اتّخاذ الموقف بصراحة ووضوح ولكن ردّة فعلهم كانت اتخاذ العجل إلهاً، بعدما ذهب موسى للقاء ربّه.

وفي المقابل، يكون حسم موقف السحرة في القصة، في ذروة القوة والشدّة، ويكشف عن حقيقة عبادية عامة هي أنّ الأشخاص المخلصين في تفكيرهم (أي الأشخاص الذين لا تنطلق مواقفهم من مصلحة ذاتية أو شذوذ نفسية أو عقلية كبني إسرائيل وأمثالهم)، سوف

ينصاعون لرسالة السماء. يرى الدكتور السامرائي أنّ بين المعرفة الحقيقية والإيمان الحقيقي علاقة وثيقة يمكن تتبّعها في أحداث قصة بني إسرائيل، ويقول: «مغزى قصة موسى في سورة الأعراف بيان أنّ الحق له السلطان الأعظم على النفوس إذا ما عرفته وآمنت به، وأنّه ليس بوسع أحد، أي أحد أن يحول بينها وبينه مهما اتّخذ من وسائل إغراء أو تهديد، ويبدو ذلك في إيمان السحرة وامرأة فرعون بموسى» (السامرائي، ١٣٨٧، صص٢٨٣-٢٨٤).

وإنّ الله تعالى يقدّم في هذه القصة نموذجين مختلفي النزعة في الصراع بين الحق والباطل، أحدهما يميل إلى الباطل والسلبية والتردّد والآخر يميل إلى الحق دون أي تردّد وشك، ولهذا الأمر صلة وثيقة بمحور السورة الرئيس. «كذلك يرتبط هذا القسم من السورة بالمقدمة في طرح مفهوم التذكر، ففي المقدمة وردت قضية ﴿**قليلاً ما تَذَكَّرُون**﴾ وهنا قال الله تعالى ﴿**لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾ (١٣٠) ليتلاحم النص هندسياً وتتواشج أقسامه» (البستاني، ١٣٨٠، ج٢، ص٥٥).

من التعابير الملفت للنظر في القصة، تعبير ﴿**سَحَرُوا أعيُنَ النَّاسِ**﴾ (١١٦) الذي يدلّ على اعتماد السحرة على خداع العيون وكون سحرهم سحراً ظاهرياً يعتمد على خطأ العين، لاقوة إلهية كما لدى موسى. وفي طول مفردة ﴿**استَرهَبُوهُم**﴾ وصعوبة تلفظها، دلالة جانبية على المحاولة المضنية للسحرة لإرعاب الناس بواسطة سحرهم، ولكنّ الآية تدلّ على أنّ السحرة لم يخطوا خطوة نحو القلوب وكان سحراً ظاهرياً يقع في العيون فقط، على عكس ما أتى به موسى من خارق للقلوب نافذ فيها بسبب كونه مأخوذاً من الله تعالى. وبهذا السبب مالت قلوب السحرة ميلاً شديداً نحو قدرة الحق وغيروا مصيرهم في لحظات. وربّما في قصر الآيات التي تدلّ على أقوالهم: ﴿**وأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ**﴾، ﴿**وَقَالُوا آمَنّا بِرَبِّ العَالَمِينَ**﴾، ﴿**قَالُوا إنّا إلى رَبّنَا مُنقَلِبُونَ**﴾، إشارة إلى سرعة انتقالهم من حالة إلى أخرى وعدم تلكؤهم في حسم الموقف السديد بعد رؤية معجزة موسى، كما ينبو عن تحمّسهم وقطعية رأيهم، هكذا يشير الله تعالى إلى نموذج ممتاز من حسم الموقف وعدم التردّد فيه.

خاتمة السورة (١٧٢-٢٠٦)

عهد «ألست» (١٧٢)

تتحدث خاتمة السورة عن عدّة موضوعات ومن أهمّها العهد المسمّى بـ«ألست»، المشار إليه في الآية ١٧٢، الذي أخذه الله من الإنسان بعد أن خلقه، وحدّد الإنسان موقفه في الصراع بين النفس والفطرة، وتقبّل عبودية الله.

الكافرين والمومنين (١٨٦-١٧٣)

ويشير الله تعالى إلى فئة المهتدين والضالّين في هذا القسم ويخصّ عدداً أكبر من الآيات إلى الضالين بسبب كونهم الأكثر في واقع الحياة.

خطاب النبي وخطاب المشركين (٢٠٦-١٨٧)

يخاطب الله في هذه الآيات الرسول ﷺ كما تتخلّل هذه الآيات، خطاب في توبيخ وتقريع المشركين لأجل عبادتهم الأصنام التي لا تملك أي قوة.

أما القسم الأعظم من الآيات الختامية للسورة تختصّ بخطاب الرسول ﷺ كما ابتدأت السورة بخطابه، وهذا نوع من ردّ العجز على الصدر، والنقطة النهائية للسورة ذكر العبادة والتسبيح والسجدة، لتؤكد على قيمة السجدة التي من أبرز علامات حسم الموقف مرة أخرى كما ذكرها في طيات السورة أيضاً ومنها موضع سجدة السحرة. فعلى هذا، خطاب الرسول وذكر السجدة في نهاية السورة، حسن الختام البارع الذي يتلائم المضامين المذكورة فيها. وللمقدمّة والختام أهمية بالغة في كل نص ومنها النص القرآني، ولجمال التعبير فيهما أثر كبير على نفس المتلّقي كما لهما دور كبير من حيث عرض المضامين وايجاد العلاقة بينهما من جانب واحد وكيفية تنمية المضامين، بدءاً من المقدمة ووصولاً إلى الخاتمة. فللبحث عن هذه العلاقات دور كبير في الوصول إلى المغزى المقصود والرسالة الحقيقية للسورة.

يلخّص سيد قطب رسالة السورة في المعركة بين الإنسان والشيطان ويرى في علاقة الأقسام المختلفة للسورة مع البعض من حيث المضمون: «لقد كانت السورة معرضاً للمعركة بين الإنسان والشيطان في أوائلها، وظلّ سياقها يعرض موكب الإيمان، وشياطين الجنّ والإنس تعترض طريقه، كما ذكر الشيطان في النبأ الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين. وكما ذكر في أواخرها نزع الشيطان والإستعاذة منه بالله السميع العليم، وهو سياق متصل ينتهي بالتوجيه إلى ذكر الله تضرّعاً وخفيةً والنهي عن الغفلة» (قطب، ١٩٨٠، ص١٤٢٨).

ويذكر بازمول عدّة مناسبات بين الآيات البدائية والختامية ويكتفي بتشابهها من حيث اللفظ والمضمون:

﴿**ذكرى للمومنين**﴾ (٢) ⟵ ﴿**تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾ (٢٠١)

﴿**اتّبعوا ما أنزل إليكم من ربّكم**﴾ (٣) ⟵ ﴿**قل إنما اتّبع ما يوحى إليّ من ربّي**﴾ (٢٠٣)

﴿ولا تتّبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذّكرون﴾ (٣)⟵ ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ (٢٠٢)

استكبار إبليس في بداية السورة ⟵ ختم السورة بوصف الملائكة بأنهم لا يستكبرون

﴿ادعوا ربّكم تضرّعاً وخفيةً﴾ (٥٥) ⟵ ﴿واذكر ربّك تضرّعاً وخفيةً﴾ (٢٠٥)

الثنائيات

السمة البارزة التي يمكن تتبّعه في سورة الأعراف، سمة الجدلية في الأقسام المختلفة للسورة. فمنذ بدايتها نرى جدلية بين الربّ كالولي المطلق ومن دونه من الاولياء، وبين الله المهلك للقرى المتمثل في ضمير "نا" واهل القرى الذين كانوا قائلين ظالمين، وبين الله والمرسل اليهم والمرسلين، وبين الله وإبليس، وبين الملائكة وابليس، وبين الإبليس وآدم وأبناءه، وبين الله وآدم وزوجته، كما نرى تقابلاً في الافعال والصفات: اتبعوا/لا تتبعوا، ثقلت/خفّت، المفلحون/الخاسرون، فسجدوا/لم يكن من الساجدين، خلقتني من نار/خلقته من طين، جاء/آتيَ، اخرج/اسكن، تحيون/تموتن.

وفي القسم التالي يصف الله تعالى التقابل في مصير الإنسان، ويوضّح أحوال أهل الجحيم وأهل الجنّة ويدخل في شرح نفسيات كل من الفريقين. فيبرز التقابل في أصحاب النار بأنّهم ينقسمون إلي الروساء والأتباع و«كل فريق يطلب من الله تعالى أن يضاعف العذاب على الآخر، وهكذا يرسم النص أهل الجحيم في قمّة الحقد الذي يكنّه بعضهم للآخر، وهذا على العكس تماماً من أصحاب الجنّة حيث رسمهم في قمّة الحبّ قائلاً عنهم "نزعنا ما في صدورهم من غلّ"، فجاء في هذا الوصف تقابلاً فنياً يشكل قمّة الإمتاع الفنّي من حيث عمارة النصّ» (البستاني، ١٣٨٠، ج٢، ص٢٥).

والقصص الملخّصة للأنبياء نماذج واضحة من تقابل ردّ فعل الناس قبال الأنبياء وتقابل مصائرهم في الفوز للمومنين والتعذيب للمكذّبين. وكذلك يتبين لنا في قصة موسي وبني إسرائيل تقابل اتخاذ المواقف بالنسبة إلي كل من السحرة وبني إسرائيل.

التقابل من أهمّ سمات التعبير القرآني الذي، يضفي جمالاً فنياً خاصاً على التعبير ومنشأ هذا الجمال وجود الصور المتقابلة والألوان المتباينة، والنماذج البشرية المختلفة، والحقائق الدينية المتناقضة، وغير ذلك من الأشياء المتضادة في طبائعها وأشكالها. ومن الغايات الفنية التي يسعى إليها التقابل توفير التناسق الفني بين أجزاء التعبير، والتناسق هو نوع من الإنسجام التام والإرتباط الوثيق بين الألفاظ والعبارات والصور، بحيث يبدو التعبير مثل

الصورة المكتملة في أجزائها، المتناسقة في ألوانها، وكالشيء الجميل الذي تترابط جميع عناصره لتكون في النهاية منظراً رائعاً مؤثراً تتملّاه العيون وتتجاذبه النفوس» (باطاهر، ٢٠٠٠، صص٢٢٨-٢٣٠). والتقابل والتضاد الموجودين في السورة لاينحصران في الإطار العام فقط، بل نشاهد ملامحهما في مواضع عدّة من خلال الآيات، ويؤدّي هذا الأمر ـ أي وجود صور التضاد والتقابل في المفاهيم والألفاظ ـ إلى إيجاد التناسق والتناغم في نص السورة، ونذكر هنا نماذج عدّة من هذه الظاهرة في الجدول التالي:

الثنائيات

الربّ كالولي المطلق	من دونه من الأولياء
الله المهلك للقرى	أهل القرى الذين كانوا قاتلين ظالمين
الله	المرسل إليهم والمرسلين
الله	إبليس
الملائكة	إبليس
إبليس	آدم وأبناءه
الله	آدم وزوجته

ما ظهر ≠ ما بطن	يهلك ≠ يستخلف
أخراهم ≠ أولاهم (مرّتين)	يحيي ≠ يميت
السيئة، السيئات ≠ الحسنة، الحسنات (أربع مرات)	لن تراني ≠ سوف تراني
نفعاً ≠ ضرراً	من ثقلت موازينه ≠ من خفّت موازينه
من يهدِ≠ من يضل/ تضلّ ≠ تهدي	فوقع الحقّ ≠ بطل
عذابي ≠ رحمتي	يأمر ≠ ينهي
مؤمنون ≠ كافرون	البلد الطيب ≠ الذي خبث
تحيون ≠ تموتون	لا يستأخرون ≠ لا يستقدمون
أصحاب الجنّة ≠ أصحاب النار (٤ مرّات)	مشارق ≠ مغارب
أنجينا ≠ أغرقنا	المعروف ≠ المنكر
يقتّلون ≠ يستحيون	الدنيا ≠ الآخرة (٤ مرات)

البلد الطيب يخرج نباته ≠ الذي خبث لا يخرج	فأنجيناه والذين معه ≠ قطعنا دابر الذين كذّبوا
إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ≠ إن يروا سبيل الغي يتّخذوه سبيلاً	يحلّ لهم الطيبات ≠ يحرّم عليهم الخبائث
اتّبعوا ≠ لا تتّبعوا	أعلم ≠ لا تعلمون
يخرج ≠ لا يخرج	الذين استكبروا ≠ الذين استضعفوا
من بين أيديهم ≠ من خلفهم	يراكم هو وقبيله ≠ لا ترونهم
فريقاً هدى ≠ فريقاً حقّ عليهم الضلالة	عن أيمانهم ≠ عن شمائلهم

النتيجة

أ) تتمتّع سورة الأعراف، بالرغم من طولها وتعدّد موضوعاتها وقصصها وسردها لأحوال أهل الجنّة وأهل الجحيم، بخيط مركزي وهدف رئيس، وهو لزوم اتّخاذ الموقف عند صراع الخير والشرّ، او الحق والباطل، كما أنّها في علاقة بسورة ما قبلها وما بعدها من جانب الموضوع العامّ.

ب) تبرز الموضوع الرئيس أي لزوم اتخاذ الموقف في الصراع بين الخير والشرّ في الأقسام المتعدّدة للسورة ولكنّه بكيفيّة مختلفة في أي قسم من هذه الأقسام، تسبّبت هذه الوحدة الموضوعية انسجاماً وتلاحماً في السورة بدءاً من المقدّمة إلى الخاتمة بالرغم من طولها وكثرة عدد آياتها.

ج) لا تنحصر وحدة السورة في الموضوعات بل تتعدّى إلي الجانب اللّغوي وتظهر في الألفاظ والمفردات، فنشاهد عدداً ملفتاً للنظر من الثنائيات او التقابلات في ألفاظ ومفردات السورة وتعابيرها الّتي تدلّ بشكل ضمني على جانبي الصراع الكوني أي الخير والشرّ، وبالتّالي تُعطي السورة وحدة وانسجاماً من الجانب اللّغوي أيضاً إضافةً على الجانب الموضوعي

د) نرى جدلية بين الربّ كالولي المطلق ومن دونه من الاولياء، وبين الله المهلك للقرى المتمثل في ضمير "نا" واهل القرى الذين كانوا قائلين ظالمين، وبين الله والمرسل

اليهم والمرسلين، وبين الله وإبليس، وبين الملائكة وابليس، وبين الإبليس وآدم وأبناءه، وبين الله وآدم وزوجته، التي تُعطي السورة وحدة وانسجاماً.

ه) نرى تقابلا في الافعال والصفات: اتبعوا/لا تتبعوا، ثقلت/خفّت، المفلحون/الخاسرون، فسجدوا/لم يكن من الساجدين، خلقتني من نار/خلقته من طين، جاء/آتيَ، اخرج/اسكن، تحيون/تموتن، ... الذي تُعطي السورة وحدة وانسجاماً.

و) كما نرى تغيرا في مسار استخدام الضمير من التكلم الى الغيبة ثم الى التكلم؛ إذتساهم اللفظة في خلق تنوع المعنى وحركيته في النص خاصة عندما تتراوح بين المتكلم والغائب ثم الى التكلم. والملاحظ أن السمات والملامح لضمير المتكلّم " أنا ونا " مازالت محتفظة بجلاله وعنفوانه وزهوه واستعلائه على الغير في السياق القرآني بمثل ما نلاحظ في الآيات الشريفة: ﴿**أَهْلَكْنَا**﴾، ﴿**بَأْسُنَا**﴾، ﴿**مَكَّنَّاكُمْ**﴾، ﴿**جَعَلْنَا**﴾، ﴿**خَلَقْنَاكُم**﴾، ... التي تُعطي السورة وحدة وانسجاماً.

ز) هناك بدايات ونهايات بمثل ما نرى السورة تبتدئ بالإرشاد ثم التقرير ثم التوبيخ ثم بيان وقاحة الشيطان ثم بيان إعادة الشيطان لوقاحته ثم خجل آدم وظلمه ثم فقده النعم وإخراجه مما كان فيه. و...

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. ابن عاشور، محمد الطاهر (٢٠٠٠م). *تفسير التحرير والتنوير*. ج٨، بيروت: مؤسسة التاريخ.

٢. أيازي، محمد علي (١٣٨٠ش). چهره *پيوسته قرآن*. طهران: هستي نما.

٣. بازمول، محمد بن عمر (٢٠٠٢م). *علم المناسبات في السور والآيات*. مكة المكرمة: المكتبة المكية.

٤. البستاني، محمود (١٣٨٠ش). *التفسير البياني للقرآن الكريم*. ج ٢، مشهد: مؤسسة الطبع للعتبة الرضوية المقدسة.

٥. بن عيسي، باطاهر (٢٠٠٠م). *المقابلة في القرآن الكريم*. عمان: دار عمار.

٦. السامرائي، فاضل الصالح (١٣٨٧ش). *التعبير القرآني*. قم: دار الزهراء.

٧. قطب، سيد (١٩٨٠م). *في ظلال القرآن*. ج ٨، ط ٩، بيروت: دار الشروق.

٨. ـــــــــ (٢٠٠٢م). *التصوير الفني في القرآن*. ط ١٦، القاهرة: دار الشروق.

٩. السيوطي، جلال الدين (١٩٨٧م). *الإتقان في علوم القرآن*. ج ٢، بيروت: دار الكتب الإسلامية.

١٠. ـــــــــــــــ (٢٠٠٢م). *أسرار ترتيب القرآن*. القاهرة: دار الفضيلة.

١١. الطباطبائي، محمد حسين (١٣٧٢ش). *الميزان في تفسير القرآن*. ج ٨ و ١٨، طهران: دار الكتب الإسلامية.

١٢. عبدالرحمن، عائشة (١٩٨٤م). *الإعجاز البياني للقرآن*. ط ٣، القاهرة: دار المعارف.

١٣. نصّار، حسين (٢٠٠٢م). *فواتح سور القرآن*. القاهرة: الشركة الدولية للطباعة.

يجب أن تضاف إلى المصادر:

خالد، دون تا

الآلوسي، ١٩٨٥، ج٨، ص٧٤